

مقدمة

هذا كتاب في تاريخ العرب قبل الاسلام ، وهو في الواقع كتاب جديد ، يختلف عن كتابي السابق الذي ظهرت منه ثمانية أجزاء . يختلف عنه في إنشائه ، وفي تبويبه وترتيبه ، وفي كثير من مادته أيضاً ، فقد ضمته مادة جديدة ، خلا منها الكتاب السابق ، تهيأت لي من قراءتي لكتابات جاهلية عُثر عليها بعد نشر ما نشرت منه ، ومن صور كتابات أو ترجاها أو نصوصها لم تكن قد نشرت من قبل ، ومن مراجعاتي لموارد نادرة لم يسبق للحظ أن سعد بالظفر بها أو الوقوف عليها ، ومن كتب ظهرت حديثاً بعد نشر هذه الأجزاء ، فرأيت إضافتها كلها الى معارفي السابقة التي جسدتها في ذلك الكتاب .

وقد رأى أستاذي العالم الفاضل السيد محمد بهجت الأثري تسميته : «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ، لما فيه من تفصيل لم يرد في الكتاب السابق ، فوجدت في اقتراحه رأياً صائباً ينطبق كل الانطباق على ما جاء فيه ، فسميته بما سماه به ، مقدماً إليه شكري الجزيل على هذا التوجيه الجميل .

وكتاباي هذان ، هما عمل فرد عليه جمع المادة بنفسه ، والسهر في تحريرها وتحجيرها ، وعليه الإنفاق من ماله الخاص على شراء موارد غير متيسرة في بلاده ، أو ليس في استطاعته مراجعتها بسبب القيود المفروضة على إعارة الكتب ، أو لاعتبارات أخرى ، ثم عليه البحث عن ناشر يوافق على نشر الكتاب ، ثم عليه تصحيح المسودات بنفسه بعد نجاحه في الحصول على ناشر ، الى غير ذلك من أمور تسلبه راحته وتستبد به وتضنيه . ولولا الولع الذي يتحكم في المؤلفين في هذه البلاد ، لما أقدم انسان على تأليف كتاب .

وإن عملاً يتم بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة ، لا يمكن أن يرضي المؤلف أو يسعده ، لأنه عمل يعتقد أنه مهما اتفق فيه من جهد و طاقة واجتهاد ، فلن يكون على الشكل الذي يتوخاه أو يريده ، والصورة التي رسمها في فكره وتصورها له . ولولا طمع المؤلف في كرم القراء بتبرعهم في تقويم عرجه وإصلاح أغلاطه وإرشاده الى خير السبل المؤدية الى التقويم والإصلاح ، ولولا اعتقاده أن في التردد أو الاحجام سلبية لا تنفع ، بل إن فيها ضرراً ، وإن كتاباً يؤلف وينشر على ما يجمع من عيوب ونقائص خير من لا شيء ، أقول: لولا هذه الاعتبارات لما تجرأت ، فأخرجت كتاباً وعددتني مؤلفاً من المؤلفين .

وأنا إذ أقول هذا القول وأثبتته ، لا أريد أن أكون مرائياً لابساً ثوب التواضع لأنظاير به على شاكلة كثير من المرائين . وإنما أقول ذلك حقاً وصدقاً ، فأنا رجل أعتقد أن الانسان مهما حاول أن يتعلم ، فانه يبقى الى خاتمة حياته جاهلاً ، كل ما يصل اليه من العلم هو نقطة من بحر لا ساحل له . ثم اني ما زلت أشعر أنني طالب علم ، كلما ظننت أنني انتهيت من موضوع ، وفرحت بانتهائي منه ، أدرك بعد قليل أن هناك علماً كثيراً فأنني ، وموارد جمة لم أتمكن من الظفر بها ، فأتذكر الحكمة القديمة « العجلة من الشيطان » .

وقد رأيت في هذا الكتاب شأني في الكتاب السابق، ألا انصّب نفسي حاكماً تكون وظيفته اصدار أحكام قاطعة ، وابداء آراء في حوادث تاريخية مضى زمن طويل عليها ، بل أكتفي بوصف الحادث وتحليله كما يبدو لي . وقد لا تعجب طريقي هذه كثيراً من القراء ، وعذري أنني لا أكتب لإرضاء الناس ، ولا أدون لشراء العواطف ، وإنما أكتب ما أعتقد وأراه بحسب علمي وتحقيقي ، والرأي عندي أن التاريخ تحليل ووصف لما وقع ووقع ، وعلى المؤرخ أن يجهد نفسه كل الإجهاد للإحاطة به ، بالتفتيش عن كل ما ورد عنه ، ومناقشة ذلك مناقشة تمحيص ونقد عميقين ، ثم تدوين ما يتوصل اليه بجده واجتهاده تدويناً صادقاً على نحو ما ظهر له وما شعر به ، متجنباً إبداء الأحكام والآراء الشخصية القاطعة على قدر الاستطاعة .

لقد قلت في مقدمة الجزء الأول من كتابي السابق : « والكتاب بحث ، أردت جهد طاقتي أن يكون تفصيلياً ، وقد يعاب عليّ ذلك ، وعذري في هذا

التفصيل أنني أريد تمهيد الجادة لمن يأتي بعدي فيرغب في التأليف في هذا الموضوع ،
وأني أكتب للمتبعين والمتخصصين ، ومن حق هؤلاء المطالبة بالمزيد . وقد
فعلت في هذا الكتاب ما فعلته في الأجزاء الثمانية من الكتاب السابق من تفصي
كل ما يرد عن موضوع من الموضوعات في الكتابات وفي الموارد الأخرى ،
وتسجيله وتدوينه ، ليقدم للقارئ أشمل بحث وأجمع مادة في موضوع يطلبه ،
لأن غايتي من هذا الكتاب أن يكون « موسوعة » في الجاهلية والجاهليين ، لا
أدع شيئاً عنها أو عنهم إلا ذكرته في محله ، ليكون تحت متناول يد القارئ .
فكتابي هذا وذاك هما للمتخصصين وللباحثين الذين يطمعون في الوقوف على حياة
الجاهلية بصورة تفصيلية ، ولم يكتبها للذين يريدون الإلمام بأشياء مجملّة عن تلك
الحياة .

والكتاب لذلك سيخرج في أجزاء ، لا أستطيع تحديد عددها الآن ، ولكني
أقول بكل تأكيد أنها ستزيد على العشرة ، وأنها ستتناول كل نواحي الحياة عند
الجاهليين : من سياسية ، واجتماعية ، ودينية ، وعلمية ، وأدبية ، وفنية ،
وتشريعية .

لقد أشار عليّ بعض الأصدقاء أن أدخل في العرب كل الساميين ، وأن
أتحدث عنهم في كتابي هذا كما أتحدث عن العرب ، لأن وطن الساميين الأول
هو جزيرة العرب ، ومنه هاجروا الى الأماكن المعروفة التي استقروا فيها ، فهم
في ذلك مثل القبائل العربية التي تركت بلاد العرب ، واستقرت في العراق وفي
بادية الشام وبلاد الشام ، لا يختلفون عنهم في شيء . ثم قالوا : فإذا كنت قد
تحدثت عن تلك القبائل المهاجرة على أنها قبائل عربية ، فلم تسكت عن أولئك
الساميين ، ولم تجعلهم من العرب ؟

وجوابي أن القبائل العربية المهاجرة هي قبائل معروفة الأصل وقد نصت
الكتابات والمصادر الأخرى على عروبتهما ، ونسبت نفسها الى جزيرة العرب ،
ولهاجاتها لهجات عربية ، لا ريب في ذلك ولا نزاع ، وثقافتها عربية . أما
الشعوب السامية ، فليس بين العلماء كما سئلت ، اتفاق على وطنها الأول ، وليس
بينها شعب واحد نسب نفسه الى العرب ، وليس في الموارد التاريخية الواصلة
الينا مورد واحد يشير الى أنها عربية ؛ ولهاجاتها وان اشتركت كلها في أمور ،

فإنها تختلف أيضاً في أمور كثيرة ، هي أكثر من مواطن الاشتراك والالتقاء .
ففرق كبير اذن بين هذه الشعوب وبين القبائل العربية من حيث العروبة . ثم ان
العروبة في نظري ليس بها حاجة الى ضم هذه الشعوب اليها ، لاثبات انها ذات
أصل تؤول اليه ، فقد أعطى الله تلك الشعوب تأريخاً ثم محاه عنهم ، وأعطى
العرب تأريخاً أينع في القديم واستمر حتى اليوم ، ثم إن لهم من الحضارة الاسلامية
ما يغنيهم عن التفتيش عن مجد غيرهم وعن تركاتهم ، لإضافتها اليهم . فليس
في العرب مركب ققص حتى نضيف اليهم من لم يثبت أنهم منهم ، لمجرد أنهم
كانوا أصحاب حضارة وثقافة ، وأن جماعة من العلماء ترى أنهم كانوا من جزيرة
العرب . والرأي عندي أن العرب لو نبشوا تربة اليمن وبقية التراب لما احتاجوا
الى دعوة من يدعو الى هذا الترقيع . فأنا من أجل هذا لا أستطيع ان أضم أحداً
من هؤلاء الى الأسرة العربية بالمعنى الاصطلاحي المعروف المفهوم ، من لفظة العرب
عندنا ، إلا اذا توافرت الأدلة ، وثبت بالنص أنهم من العرب حقاً ، وأنهم
كانوا في جزيرة العرب حقاً .

نعم ، لقد قلت إن مصطلح الشعوب العربية هو أصدق اصطلاح يمكن اطلاقه
على تلك الشعوب ، وإن الزمان قد حان لاستبدال مصطلح «عربي» و «عربية»
بـ «سامي» و «سامية» ، وقلت أشياء أخرى شرحتها في الجزء الثاني من
الكتاب السابق في تعليل ترجيح هذه التسمية^١ . ولكني لم أقصد ولن أقصد أن
تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة . فالسامية
وحدة ثقافية ، اصطلاح عليها اصطلاحاً ، والعروبة وحدة ثقافية وجنسية وروابط
دموية وتاريخية ، وبين المفهومين فرق كبير .

إن مما يثير الأسف والله في النفوس ان نرى الغربيين يعنون بتأريخ الجاهلية
ويجدون في البحث عنه والكشف عن مخططاته وتركاته في باطن الأرض ، ونشره
بلغاتهم ، ولا نرى حكوماتنا العربية ولا سيما حكومات جزيرة العرب ، إلا منصرفه
عنه ، لا تعنى بالآثار العناية اللازمة لها ، ولا تسأل الخبراء رسمياً وباسمها البحث
عن العاديات والتنقيب في الخرائب الجاهلية لاستخراج ما فيها من كنوز ، وجمعها
في دار للمحافظة عليها ولإطلاع الناس عليها . وقد يكون عذر هذه الحكومات

أن الناس هناك ينظرون الى التماثيل نظرهم الى الأصنام والأوثان ، والى استخراج الآثار والتنقيب عن العاديات نظرهم الى بعث الوثنية واحياء معالم الشرك ، وهي من أجل هذا تخشى الرأي العام ، ولاني على كل حال أرجو أن تزول هذه الأحوال في المستقبل القريب ، وأن يدرك عرب الجزيرة أهمية الآثار في الكشف عن تأريخ هذه الأمة العربية القديم .

كذلك أرجو أن تنتبه حكومات جزيرة العرب لأهمية موضوع التخصص بتأريخ العرب القديم ، وأن تكلف شبانها دراسة علم الآثار ودراسة لهجات العرب قبل الإسلام والأقلام العربية الجاهلية ، ليقوموا هم أنفسهم بالبحث والتنقيب في مواطن العاديات المنبثة في مواطن كثيرة من الجزيرة .

ورجاء آخر أتمنى على جامعة الدول العربية والدول العربية أن يحققوه ، وهو ارسال بعثات من المتخصصين بالآثار وباللهجات والأقلام العربية القديمة الى مواطن الآثار في اليمن وفي بقية العربية الجنوبية والمواضع الأخرى من جزيرة العرب للتنقيب عن الآثار ، والكشف عن تأريخ الجزيرة المطمور تحت الأنثرة والرمال ، ونشره نشرأ علمياً ، بدلاً من أن يكون اعتمادنا في ذلك على الغربيين . أفلا يكون من العار علينا أن نكون عالة عليهم في كل أمر ، حتى في الكشف عن تأريخنا القديم !

وأضيف الى هذا الرجاء رجاء آخر هو أن تقوم أيضاً بتدوين معجم في اللهجات العربية الجاهلية ، تستخرجه من الكتابات التي عُثر عليها، وبتأليف كتب في نحوها وصرفها ، وترجمة الكتب الأمهات التي وضعها المؤلفون الأجانب في تأريخ الجاهلية ، ترجمة دقيقة تنأى عن المسخ الذي وقع في ترجمة بعض تلك المؤلفات فأشاع الغلط ونشر التخريف .

لقد راجعت بعض المستشرقين الباحثين في تأريخ العرب القديم ، وسألت بعض من ساح في جزيرة العرب في هذه الأيام ، وبعض الشركات العاملة فيها ، في آخر ما توصلوا اليه من بحوث ، وعثروا عليه من عاديات ، فوجدت منهم كل معونة ، وأرسلوا وما برحوا يرسلون أجوبتهم إليّ بكل ترحاب ولطف ، وكتبت الى بعض حكومات جزيرة العرب والى بعض المسؤولين من أصحاب المكاثة فيها والنفوذ مراراً ، أسألهما وأسألهم عن العاديات وعن الآثار التي عُثر عليها

حديثاً في بلادهم ، فلم أسمع من الاثنين جواباً ، وإني اذ أكتب هذه الملاحظة المرة المؤسسة ، إنما أرمي بها إلى التنبيه ولفت أنظار أولي الأمر أصحاب الحكم والسلطان . فمن واجب المسؤول اجابة السائل ، ولا سيما أن القضية قضية تخص البلاد المذكورة بالذات والعرب عموماً ، وبيح أن ينبري الغريب ، فيساعد طالب بحث عن تأريخ أمته واخوته ، ويستكشف المسؤولون من أبناء هذه الأمة عن تنفيذ طلب لا يكلفهم شيئاً ، وهو خطير يتعلق بتأريخ هذه الأمة قبل الإسلام واذاعته أولاً ، وهو واجب من واجباتهم التي نصبوا من أجلها ثانياً .

لقد تمكن الباحثون في التأريخ الجاهلي ، من سياح وعلماء ، من الارتقاء بتأريخ الجاهلية بمئات من السنين قبل الميلاد ، وذلك على وجه صحيح لا مجال للشك فيه ، مع أن بحوثهم هذه لم تنزل سوى أمتار في باطن الآثار وفي أماكن محدودة معينة . وسوف يرتفع مدى هذا التأريخ الى مئات أخرى ، وربما يتجاوز الألفي سنة أو أكثر قبل الميلاد اذا أتيت الفرص للعلماء في الحفر في مواضع الآثار حفراً علمياً بالمعنى الحديث المفهوم من (الحفر) . وأنا لا أستبعد بلوغ هذا التأريخ الجاهلي في يوم من الأيام التأريخ الذي وصل اليه العلماء في مصر وفي العراق ، أو في أماكن أخرى عرفت بقدم تأريخها ، بل لا أستبعد أيضاً أن يتقدم هذا التأريخ تأريخ بعض الأماكن المذكورة .

وبعد هذا ، لا بد لي هنا من الاعتراف بفضل رجل ، له على هذا الكتاب وعلى الكتاب الأول يد ومئة ، وله كذلك على مؤلفها فضل سابق ، يسبق زمن تأليف كتابيه بأمد طويل ، هو فضل الارشاد والتوجيه والتعليم . وأريد به الاستاذ العلامة الفاضل السيد محمد بهجت الأثري ، العضو العامل في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، وعضو المجلس الأعلى الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة . فقد كان لي ولأمثالي من الدارسين والباحثين ولا يزال مرشداً وموجهاً ومشوقاً لدراسة التراث العربي والتراث الإسلامي والتأليف في ذلك ، مذ كنت تلميذه في الإعدادية المركزية ببغداد أتلقى عنه في جملة من كانوا يتلقون عنه الأدب العربي ، فكان يشوقنا بأسلوبه الجذاب ، وبتأثيره القوي المعروف ، الى التوسع في دراسة الأدب العربي وتأريخ الأمة العربية ، وهو ما برح يحثني على الاسراع في اتمام هذا الكتاب واخراجه للناس ، قارئاً مسوداته ، ومبدياً آراءه وارشاداته وملاحظاته القيمة ، التي أفادني ، والحق

أقول ، كثيراً . وهما فضلان لن ينساهما تلميذ يقدر الفضل لأستاذ كريم يفني نفسه في تربية الأجيال ونشر الأدب والعلم .

وبعد ، فهذا الكتاب هو جمعي وترتبي ، فأنا المسؤول عنه وحدي ، وليس لأحد محاسبة غيري عليه ، اجتهدت ألا اضمّنه إلا الحق والصواب من العلم على قدر طاقتي واجتهادي ، فإن أكن قد وفقت فسيما قصدت إليه وأردته ، فذلك حسبي وكفى ، لا أريد عليه حمداً ولا شكراً ، لأنني قتت بواجب ، وعملت عن شوق ورغبة وولع قديم بهذا الموضوع يرجع الى أيام دراسي الأولى ، فليس لي فضل ولا منة ، وإن كان فيه حسناً فهو للعلماء الذين اعتمدت عليهم وأخذت منهم ، وليس لي فيه غير الجمع والتأليف . وإن أخفقت فيه فذلك مبلغ علمي واجتهادي ، أديته بعد تعب ، لا أملك أكبر منه ، وبغيتي حسن التوجيه والإرشاد وتقويم الأود ، وتصحيح الأغلاط ، فالنقد العلمي الحق لإنشاء وبناء ، والمدح والإطراء في نظري ابعاد لطالبي العلم من أمثالي عن العمل والتقدم ، وسبب يؤدي الى الخيلاء والفضلال ، وفوق كل ذي علم عليم .

جواد علي